نقد النزعة الإنسانية وأفق التحقق الميتافيزيقي "في تأويل رونيه غينون"

بنحمزة زهرة
باحثة في سلك الدكتوراه، تخصص فلسفة
تحت إشراف الدكتور منير عشقي
أستاذ الفلسفة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة القاضي عياض، مراكش
z.benhemza.ced@uca.ac.ma
mounir.achki@gmail.com
المملكة المغربية

الملخص:

لأنطولوجية ونتائجهما الحضارية. يتمثل المسار الأول في النزعة الإنسانية الحديثة التي أعادت تمركز الإنسان داخل أفق محايث، فاختزلته إلى "أنا فردية" تاريخية—نفسية منقطعة عن مبدئها الميتافيزيقي، بما أفضى —في منطقها الداخلي— إلى تفكك المعنى وتآكل الغاية. بينما يتجسد المسار الثاني في مشروع رونيه غينون الذي سعى إلى استعادة البعد الميتافيزيقي للإنسان عبر الارتباط بالتراثيات الشرقية بوصفها حاملةً لعلمٍ مقدّس يعيد وصل الكائن البشري بأصله الميتافيزيقي.

يرصد التحليل تجلّي هذا المسار الصاعد في نماذج رمزية كبرى: اليوغي في الهندوسية بوصفه مثالًا للتحقق المعرفي بالهوية العليا، ثم شِين—جِين في الطاوية باعتباره تناغمًا بين الروح والنظام الكوني، وأخيرًا «الإنسان الكامل» في الباطنية الإسلامية حيث يتحقق التماثل بين الإنسان والكون ضمن وحدةٍ متناغمة. ويخلص المقال إلى أن المفارقة بين المسارين ليست ثقافية فحسب، بل أنطولوجية بالأساس: فبينما يقود المسار الحداثي إلى تشظي الأنا الفردية وانفصالها عن أصلها، يفضي المسار التراثي إلى استعادة الكمال عبر ارتقاء الإنسان للمبدأ الميتافيزيقي، بما يجعل تحققه رهينًا بالعبور من الفردية المنغلقة إلى الكونية الأصيلة.

الكلمات المفتاحية: النزعة الإنسانية، التحقّق الوجودي، رونيه غينون، التراثيات الشرقية، المبدأ الميتافيزيقي.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

The Critique of Humanism and the Horizon of Metaphysical Realization: In the Interpretation of René Guénon

Abstract

This article examines the ontological tension between modern humanism and the metaphysical framework of René Guénon regarding human existential realization. It contrasts the modern "individual Self"—defined by immanence and alienation from its Metaphysical Principle—with the Traditional path, which seeks to restore "Sacred Science" through Eastern spiritual legacies.

The study explores this ascending trajectory through three symbolic archetypes: the Hindu Yogi (Supreme Identity), the Taoist Cheun-jen (Cosmic Harmony), and the Islamic Al-Insān al-Kāmil (Universal Man). These figures represent the "effective realization" of the human state by harmonizing the microcosm with the macrocosm.

The investigation concludes that the modern trajectory leads to existential fragmentation and the erosion of finality. In contrast, Guénon's Traditional perspective demonstrates that human completion is contingent upon transitioning from the restricted, closed "individual Self" to the "Universal" state. By transcending individual limitations, the human subject re-establishes its essential link with the Absolute.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

مقدمة

شهد الفكر الغربي منذ عصر النهضة انعطافاً جذرياً في تصور الكيان البشري، إذ نَقَلَ العقلُ الحديثُ مركز الثقل الأنطولوجي من المبدأ الإلهي والنظام الكوني الكلي إلى "الإنسان الفرد" بوصفه المحور الأوحد للقيمة والمعنى. وتجلّى هذا التحول في "النزعة الإنسانية" التي رامت إعلاء كرامة الإنسان واستقلاله الأخلاقي عبر تحرير "الأنا" من الأطر الميتافيزيقية واللاهوتية، فوضعت بذلك اللبنة الأولى لإنسانٍ يتخذ من الإرادة الذاتية والعقل الأداتي أساساً لوجوده. بيد أن هذا التمركز حول الأنا لم يلبث أن أفضى إلى أزمة وجودية عميقة، انتهت بتمزيق وحدة الكيان البشري في خطابات ما بعد الحداثة والبنيوية، التي أعلنت "موت الإنسان" وحولته إلى شتاتٍ موزّع بين التفسيرات اللغوية والاقتصادية والنفسية، مما أفقده هويته الجوهرية وغايته القصوى.

وفي خضم هذا التشظي المعرفي، يبرز مشروع "رونيه غينون" بوصفه محاولةً استثنائية لإعادة ترميم الكيان الإنساني عبر الحفر في طبقات التراثيات الشرقية واستعادة مفهوم "الإنسان الكامل". ومن هنا تنبثق إشكالية البحث لتتساءل عن طبيعة التحول الذي مارسته الحداثة على الإنسان: فهل كان تمجيد العقل للذات الإنسانية إعلاءً ل شأنها أم تمزيقاً لجوهرها؟ وهل يمتلك العقل المجرد القدرة على الإحاطة بمراتب الوجود الإنساني دون اختزالها؟ وكيف استطاع غينون صياغة مفهوم "الإنسان الكامل" خارج هيمنة الخطابات العقلانية الغربية بالاعتماد على المنابع التراثية الشرقية؟

يهدف هذا البحث إلى كشف القصور الأنطولوجي في النزعة الانسانية، مع تبيان كيفية استعادة البعد الميتافيزيقي للإنسان من خلال "العلم المقدس" في التقاليد الشرقية. وتنطلق الدراسة من فرضية مفادها أن اكتمال الإنسان لا يتحقق إلا بالانعتاق من "الأنا" الفردية المنغلقة والاتصال بالمبدأ الميتافيزيقي المطلق، وهو ما يجعل من التراثيات الشرقية نموذجاً كونياً قادراً على تجاوز مأزق الحداثة. ولتحقيق هذه الغاية، ينتهج البحث مسلكاً تحليلياً مقارناً يتقصى أبعاد "الإنسان الكامل" في نماذجه الثلاثة (اليوغي، الإنسان الحقيقي، الإنسان الكامل)، وصولاً إلى صياغة رؤية نقدية تضع المسار التقليدي في مواجهة المسار الحداثي المادي، ضمن خطة بحثية تبدأ بتحليل النزعة الإنسانية وتنتهي بإثبات فاعلية التحقق الميتافيزيقي.

1- النزعة الإنسانية وصيرورة انحدار الإنسان:

أ- تأسيس النزعة الإنسانية:

تجلت النزعة الإنسانية في فجر النهضة الإيطالية بوصفها انعطافًا وجوديًا حاسمًا، نقل مركز الثقل الفكري من الميتافيزيقا السكولائية إلى رحاب الذات الإنسانية، من الله بوصفه مرجعًا أعلى إلى الإنسان بوصفه مقياسًا لكل شيء. انبثقت هذه النزعة من رحم المدارس الإيطالية التي اقتات على النحو والبلاغة والدراسات الكلاسيكية، بيد أنها لم تلبث أن تمردت على هذه القوالب الضيقة لتعيد بعث الروح اليونانية الرومانية، متخذة من الفيلولوجيا (Philologie) أداة لبناء صرح ثقافي جديد. لقد جسد فرانشيسكو بيتراركا Francesco Petrarca (1304-1374م) هذا التحول في أقصى تجلياته الوجدانيّة، حيث جعل الكفاءة الأدبية والبلاغية وسيلة لترميم كرامة الإنسان[1] وصقل ملكاته، فغدت النزعة الإنسانية ليست مجرد منهج تعليمي، بل

[1] - ERNST CASSIRER, PAUL OSKAR KRISTELLER, JOHN HERMAN RANDALL, **The Renaissance Philosophy of Man**, 1948 by The University of Chicago. Published 1948. Fourth Impression 1956. Composed and printed by The University of Chicago Press, Chicago, Illinois, U.S.A, p4-5-6.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

استعادة لمكانة الكائن في عالم يراه مجرد حقلة في تراتبية وجوديّة، مما مهد الطريق لانتشار هذه الحركة في أوروبا بوصفها ديانة جديدة للجمال والقيّم الأخلاقية الإنسانية.

بيد أن التمجيد المفرط للإنسان، والذي بلغ ذروته مع الأفلاطونية الجديدة في فلورنسا، قد تأسس على مفارقة عميقة لم يدرك أصحابها خطورتها في حينها. فقد مارس مارسيلو فيشنو Marsilio Ficino (1433-1499م) توفيقية بين الأفلاطونية واللاهوت المسيحي لإثبات وحدة الحقيقة وانسجام العقل مع الوحي، في حين ذهب جيوفاني بيكو ديلا ميراندولا Giovanni Pico Della Mirandola (1463-1494) إلى أبعد من ذلك حين جعل من المعرفة سلما يرتقي به الإنسان إلى تخوم الألوهيّة. هذا الاحتفاء بالحرية والقدرة على التعالي الروحي قدم صورة مثالية "لتأليه الإنسان"، لكنه في الوقت ذاته أغفلت النفاذ إلى الطبيعة الإنسانية في تعينها الواقعي ومحدوديتها الوجودية، فالنزعة الإنسانية رفعت الإنسان إلى مصاف المبدأ المتعالي، وتركت ماهيته الحقيقية غارقة في ضبابية التمجيد الخطابي والجمالي.

واجه هذا المشروع إشكالية تكمن في محاولة التوفيق بين العقل والحدس، الإيمان والحرية، وهي محاولة ظلت أسيرة الرؤية التفاؤلية التي تغنت بقدرات الإنسان عبر تفتيته وتجزيئه إلى ثنائيات متمايزة. لقد استبدلت النزعة الإنسانية مراتب الوجود بصنم إنسان متخيّل، مشحون بقيم جماليّة مستقاة من العصور الكلاسيكية، مما جعل الطبيعة البشرية سديمًا يفتقر للتحديد الأنطولوجي، فكان التمجيد صوتًا مدويًا غطى غياب معرفة كليّة متكاملة تكشف أبعاد الإنسان ومراتبه الوجودية والروحية. وقد لاحظ المؤرخ جاكوب بوركهارت Jacob Burckhardt (1818-1897) أن الأنا الفردية في عصر النهضة بلغت من الانفتاح حدًا جعل الذات المبدعة تطالب بلقب الإنسان الكامل (Uomo Universale)، وهو لقب ينطوي في باطنه على قلق وجودي لا حدود له.[1]

الإنسان بلا ماهية "جيوفاني بيكو ديلا ميراندولا:

يعدّ كتاب "خطاب في كرامة الإنسان" (1486) لبنة أساسية في بناء النزعة الإنسانية الإيطالية، حيث حاول جيوفاني إعادة تحديد الإنسان أو بالأحرى الطبيعة الإنسانية، من خلال موقعته داخل مراتب الوجود العليا والسفلى. فالإنسان لا تحديد ثابت له، حيث يظهر كمخلوق متأخر جاء بعد اكتمال النظام الكوني، حين استنفدت النماذج الأولية والمراتب الوجودية كلها. و لم يبق للخالق نموذج يصوغ عليه الإنسان، ولا مرتبة يضعه فيها، فكان كائنًا بلا ماهية محددة سلفا، "لم أعطك يا آدام، لا مكانا محددًا، ولا هيئة خاصة، ولا أي امتياز خاص بك، لكي تحصل على ما تشتهي من مكان وهيئة وامتيازات، وتحتفظ به، كل ذلك وفقا لإرادتك ومشورتك."[2] يوضح الخطاب الإلهي لآدام أنه ليس وجودًا مكتملاً أو متحقّقا بالفعل، إنما هو مشروع مفتوح على كل الإمكانات والاختيارات التي تلائم إرادته ومشيئته.

يتحول التعريف السلبي أو اللاتعيّن، للإنسان عند جيوفاني أساس لإثبات كرامته، فبينما الكائنات الأخرى محبوسة في طبائع ثابتة، إذ أن البهائم تحمل منذ ولادتها كل ما ستكون عليه والملائكة مقيّدون بما كتب لهم في الأزل، فإن الإنسان حقل من

[1] - Jacob Burckhardt, **The Civilization of the Renaissance in Italy**, S. G. C. Middlemore, London, C. Kegan Paul & Co, 1878, p52-53.

[2] - GIOVANNI PICO DELLA MIRANDOLA, **ORATION ON THE DIGNITY OF MAN**, Translated by A. Robert Caponigri Introduction by Russell Kirk, A GATEWAY EDITION HENRY REGNERY COMPANY CHICAGO, p7.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

البذور، وحياته عملية زراعة وإنماء لها. وما ينميه الإنسان من هذه البذور هو عينه طبيعته الفعلية، فإذا نمّى بذور النبات صار نبات، وإذا نمّى البذور الحسيّة صار بهيمة، وإذا نمّى البذور العقلية ارتفع إلى الكائنات السماوية، بل أكثر من ذلك قد يتوحد مع الله ذاته. ويوضح ذلك الصورة المسيحية التي تحدد الطبيعة الإنسانية بوصفها إمكانية وليس تحققًا ثابتًا.

يتوسط الإنسان العالم لكن وسطيته ليست ثابتة بل دينامية ووظيفية. فالإنسان في المركز محور الحركة، كموضع يتيح له النظر الكلّي والحركة في جميع الإتجاهات. ما يعني أنه ليس وسيطًا بين السماء والأرض كما في التراثيات الشرقية، بل هو إما سماوي أو أرضي أو ربما أعلى منهما معًا. فالمركزية هنا حرية واختيار، لذلك فهي تتخذ دلالة أخلاقية محددة. يتشكل الإنسان بحسب ما يختار أن يكون عليه، وهذا الاختيار والاستقلالية هو محور الكرامة الإنسانية. ويتجسد النموذج الأعلى للإنسان عند جيوفاني في الرتب الملائكية الثلاث: العروش التي تمثل الحكمة العملية والعدالة، والكروبيم[1]التي المعرفة التأملية والإشراق الفكري، ثم السرافيم[2]التي تمثل المحبة النقية والوحدة الإلهية. فالإنسان مدعو لمحاكاة هذه المراتب بالإختيار: فإذا تولى شؤون العالم بالعدل صار عروشًا، وإن تأمل الحقائق صار كروبًا، وإن أحب الله خالصًا صار سارفًا. تظهر جدلية بين الفعل والتأمل والحب، وهي جدلية لا يلغي أي طرف الآخر بل هي مراتب ترقي روحي واحد. يمر الطريق عبر الكروبيم الوسيط، بحيث لا يمكن محبة المجهول ولا الحكم على ما لم يتأمل، ويقدم جيوفاني مثال موسى الذي رأى الله على الجبل قبل أن يحكم الشعب.

غير أن تمجيد الإنسان عند جيوفاني لا يخلو من تمزيق للذات الإنسانية وفصلها عن وجودها ذاته، أي كحالة من الاغتراب الأنطولوجي العميق. لقد جعل الأنا الفردية قالبًا فارغًا من أي ماهية ومنفصل عن أي مبدأ ميتافيزيقي، ليمنحها القدرة على تشكيل ذاتها وطبيعتها من الداخل. وصار هذا القالب الفارغ حرية مطلقة وإرادة لا محدودة، لكنه بالضرورة منفصل عن واقعه وشروطه الموضوعية التي تحيط به وتؤثر في إمكاناته الفعليّة. يكتسب الانسان كرامته استنادا إلى تمزيق فرديته إلى ثنائية: الجسد الذي يهوي به إلى الدركات البهيمية، والعقل الذي يرقيه إلى الدرجات السماوية. وكأن الارتقاء الإنساني مشروط بهذا التمزيق والجدار الذي يفصل الجسد عن العقل، الأرضي عن السماوي، وهنا يظهر السؤال: هل يمكن تحقيق الترقي الإنساني دون تمزيق الذات الإنسانية ذاتها؟

---

[1] – **الكروبيم:(Cherubim)** رتبة ملائكية علوية ذات أصول تاريخية عريقة مستمدة من حضارات الرافدين (من الأكادية "كاريبو" أي الشفيع)، تطور مفهومها من كائنات حارسة للمداخل في فنون الشرق الأدنى القديم إلى أرواح سماوية في التراث اليهودي–المسيحي. تتبوأ المرتبة الثانية في الهرمية الملائكية (وفق التصنيف الديونيسي)، وتُعد رمزاً للمعرفة الإلهية والقدرة السامية، حيث تُوصف بأنها "كثيرة العيون" تعبيراً عن سعة علمها. ارتبطت أدوارها بحراسة جنة عدن، وحمل العرش الإلهي، والرقابة على النجوم الثوابت، ويُعتبر الملاك "كروبيل (Cherubiel)" رئيسها الرسمي الذي يحمل اسمها، بينما تُنسب رئاستها في تقاليد أخرى إلى جبرائيل.

– Gustav Davidson, A DICTIONARY OF Angeles “INCLUDING THE FALLEN ANGELS” ,The Free Press New York, p86–87.

[2] – **السرافيم:(Seraphim)** أسمى الرتب الملائكية في الهرمية السماوية وفي المأثور اليهودي؛ وهم "ملائكة المحبة والنور والنار" الذين يحيطون بعرش المجد الإلهي في تسبيح سرمدي بالتقديس الثلاثي (قدوس، قدوس، قدوس). وُصفوا في رؤيا إشعياء بأن لكل منهم ستة أجنحة وأربعة وجوه، وتُقرن رتبتهم في الأدبيات الخاخامية بـ "الحيوت" (الكائنات المقدسة)، حيث يمثلون القوة الروحية القائمة بحضرة الجلال، ويُعتقد أن عددهم أربعة تيمناً برياح العالم الأربع.

Gustav Davidson, A DICTIONARY OF Angeles “INCLUDING THE FALLEN ANGELS”, – p267–268.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

"مديح الحمق الإنساني" ديديروس إيراسموس:

يشكل كتاب إيراسموسDesiderius Erasmus (1466–1536) "مديح الحماقة" لحظة مفصلية في تفكيك المركزية العقلانية الغربية التي أرستها النزعة الإنسانية. لا تتجلى الحماقة كنقيض سلبي للحكمة أو غيابًا للعقل فقط، بل المبدأ الوجودي الذي يحكم الكون، والماهية التي بها تتقوم الحياة الإنسانية، حيث تعيد رسم معالم الوجود الإنساني عبر قلب تراتبية اللوغوس (Logos)، ذلك اللوغوس قشرة رقيقة واهية تغلف بركانًا من الغرائز والأهواء"الباتوس"[1] التي لولاها لما استمر النوع الإنساني أصلاً. فالحياة في جوهرها البيولوجي والإجتماعي هي فعل حماقة بامتياز: لا يخلق الوجود من رأس زيوس "الحكمة الباردة" بل من نزوات الحياة ورغباتها، ما يجعل العقلانية دخيلاً ثقيلاً يفسد عفوية الكينونة.

تتبدى ماهية الإنسان ككائن مفارق بطبعه، ممزق بين نصف أوقية من العقل ورطل كامل من الهوى[2]، حيث حبس العقل في زاوية ضيقة من الدماغ، بينما ترك باقي الجسد مرتعا للفوضى الخلاّقة؛ ذالك أن الحكمة نوع من الموت المسبق أو الشيخوخة المبكرة التي تجفف منابع الحياة المتدفقة. فالإنسان العاقل[3] هو كائن ضد الطبيعة، كائن شقي بوعيه، بينما السعادة الحقة والإنسجام مع الكون في حالة الحماقة أو "الجنون اللذيذ" الذي تمثله مرحلة الطفولة المبتدأ، والشيخوخة في المنتهى، وكأن سيرورة الإنسان ومصيره محاولة فاشلة الخروج من فردوس الحماقة عبر خطيئة المعرفة، ثم العودة إليه للاحتماء من قسوة الواقع.

في هذا السياق، يزحزح إيراسموس مكانة الإنسان من "فاعل بالعقل" إلى "مفعول به بالأهواء"، لكن ليس هذا تحقيرًا، إنما إعادته إلى واقعه الصادم؛ فالكون بما فيه ليس نظامًا عقلانيًا متعاليًا، بل مسرح عبثي تحكمه الحماقة ذاتها، وعليه فإن مصير الإنسان ليس صعودًا إلى "المثل الأفلاطونية"، بل انغماس في "الديونيسي المقدس"، حيث الأقنعة الاجتماعية والغرور الذاتي (فيلانيا)، ليست رذائل أخلاقية بقدر ماهي آليات دفاعية ضرورية لتماسك النسيج الاجتماعي واستمرار الحياة، ما يجعل الحماقة الرابط الكوني والقوة الدافعة للتاريخ.

ب– انحدار النزعة الإنسانية من الداخل:

كشفت التحولات الفكرية في فجر العصر الحديث عن الهشاشة البنيوية العميقة في مشروع النزعة الإنسانية، حيث تلاشت أوهام الأخلاق المثالية لتظهر الطبيعة الإنسانية في تعينها الواقعي الصريح. وأقرت هذه المرحلة بأن الإنسان ليس ذلك الكائن المتعالي الحر، بل هو كائن تحركه المصلحة والقوة والخوف. وأزاحت الستار عن "أسطورة الإنسان" التي تغنت بها أقطاب هذه النزعة، لتؤكد أنها لم تكن سوى أمنيات حالمة اصطدمت بنسيج الواقع.

---

[1] –يعرف ميشيل هنري الباتوس pathos بأنه التجلي الذاتي المباشر للحياة نفسها، أي شعورها بذاتها قبل كل إدراك موضوعي أو علاقة بالعالم الخارجي. فالحياة، لا تعطى كشيء يرى، بل كشعور يعاش من الداخل. هذا الشعور المحض هو الذي يؤسس الخبرة المحضة والقدرة معًا، إذ تختبر القدرة أولا الشعور الداخلي بالقوة قبل أن تتحول إلى فعل خارجي. تحدد في هذا المستوى الفاعليّة والانفعاليّة، لأن كل جهد يعاش كشعور بالفعل ذاته. فالألم لا يظهر كموضوع أمام الوعي، بل كاختبار داخلي يلتصق بالذات التصاقا كاملاً؛ أنه تجربة باطنية خالصة تحيا فيها الحياة نفسها حضوراً ذاتيا مطلقًا لا وساطة فيه.

– Gibert Mathias, La Praxis Michel Henry: corps et esprit de la phénoménologie matérielle.

[2] –Desiderius Erasmus, In Praise of Folly, Grand Rapids, MI: Christian Classics Ethereal Library, (Date Created): 2000-07-09, p10.

[3] –يذكر إيراسموس تعريف أرسطو "الانسان حيوان عاقل" أو التحديد الرواقي.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

تفاقمت هذه الأزمة فلسفيّا مع ظهور "الكوجيطو" الديكارتي، الذي سعى إلى تأسيس اليقين الإنساني لكنه انتهى إلى تكريس قطيعة بين الجسد والروح. جردت هذه الفلسفة الإنسان من جسده وتجاربه الحسيّة، وحولته إلى "أنا مفكرة" قاطنة في تجريد مطلق، أدت هذه الفلسفة إلى تمزيق صلة الكائن بالعالم الخارجي، وتسببت في خسارة الإنسان لانتمائه الأصيل في الفضاء العام. ويبيّن شارل تايلور Charles Taylor أن الحداثة الغربية، في مسيرتها نحو الداخلية (Inwardness)، دفعت ثمن هذه الداخلية بتمزيق الكائن الإنساني ذاته عن موارد الفضاء العام والحياة الاجتماعية المشتركة[1]. وما يجعل هذه الأزمة ذات طابع بنيوي هو انبثاق من داخل النزعة الإنسانية: تسعى النزعة الإنسانية إلى تحرير الإنسان من سلطة الميتافيزيقا واللاهوت، فتمنحه حرية اختيار كاملة تتحول إلى عبء أنطولوجي لا يحتمل. يصبح الإنسان الحر، ذلك الإنسان الذي لا تحده ماهية ولا تقيّده تراتبية وجودية، كائنا يرزح تحت ثقل حريته، كما صاغها سارتر لاحقًا بعبارة "الإنسان محكوم عليه بأن يكون حرًا". فالحرية المطلقة ليست منحة بل مسؤولية تحيل الوجود إلى أرض رخوة لا قرار لها.

شخص رونيه غينون René Guénon (1886– 1951) النزعة الإنسانية بوصفها الجذر الأنطولوجي العميق الذي انبثق منه الإنحدار الميتافيزيقي للحضارة الغربية الحديثة، حيث لم ير فيها مجرد موقف فكري عابر، بل تحولا جذريّا يقلب التراتبية الوجودية رأسا على عقب. فقد عملت هذه على اختزال مراتب الوجود في الحدود البشرية الصرفة[2]، نافيّة بذلك المبادئ الميتافيزيقية العليا التي كانت تمثل المرجعية الأساسية للإنسان في علاقته بالوجود والكون. يمثل هذا الاجراء الاختزالي قطيعة مع المبدأ الميتافيزيقي، وانفصالا كليّا عن كل ما يتجاوز الذات الإنسانية، مما جعل هذا الكائن المحدود والنسبي مركزًا مطلقًا ومقياسًا نهائيًا للأشياء، وهو ما اصطلح غينون على تسميته "الإعراض عن السّماء بذريعة غزو الأرض (أي نسيان الحق–تعالى– وشرائعه وكتبه ورسله، والاستغراق في التشتيت المادّي وغفلات وهوى النفوس وتيه الأفكار المقطوعة عن الوحي الإلهي)."[3] بذلك استبدل النظام العمودي الروحي بمشروع أفقي مادّي يقدس الكم على حساب الكيف، ويجعل من الوجود الإنساني قوقعة منغلقة على ذاتها، مفتقرة لأي معنى يتجاوز مرتبة الحس والمادة.

تكمن خطورة هذا المسار الحداثي في كونه يحمل في طياته دينامية للانحدار لا تقبل التوقف، إذ أن النزعة الإنسانية، بمجرد أن تقطع صلتها بالمبدأ الميتافيزيقي، تفقد المعيار الذي يضبط حركتها، فتنجرف نحو أدنى مراتب الطبيعة الإنسانية. هذا التأرجح نحو المرتبة المادية لم يقد إلى تحرير الإنسان كما زعمت النزعات الإنسانية، بل أفضى إلى تمزيق كينونة الإنسان واحتقار خصائصه، حيث استحال الإنسان الذي أُريد له أن يكون سيدًا إلى عبد لنهم مادّي لا يشبع، وغرق في دائرة جهنمية من الإنتاج والاستهلاك التي أفرغت حياته من أي غاية عليا. لقد استشرف غينون بوعيه الميتافيزيقي، الأفق المسدود للنزعة الإنسانية، حيث بيّن أن الاستمرار في الإنحدار المتدرج سيؤدي حتما إلى تآكل الإنسان ذاته، وهو ما تجسّد لاحقا في الفكر الفلسفي المعاصر الذي أعلن صراحة عن موت الإنسان أو عن قرب اختفائه[4].

---

[1] - Charles Taylor, **Sources of the Self: The Making of Modern Identity**, Cambridge, MA: Harvard University Press, 1989, p211.

[2] – الشيخ عبد الواحد يحيى (رونيه غينون)، **أزمة العالم الحديث**، ترجمه إلى العربية عبد الباقي مفتاح، عالم الكتب الحديث إربد–الأردن، الطبعة الأولى 2017، ص 21.

[3] – – الشيخ عبد الواحد يحيى (رونيه غينون)، **أزمة العالم الحديث**، ص 21.

[4] –عبد الرزاق الدواي، **موت الإنسان "في الخطاب الفلسفي المعاصر"**، دار الطليعة للطباعة والنشر –بيروت، ص6.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

تجلى موت الإنسان في الفكر الفلسفي والعلوم الإنسانية المعاصرة ليس بوصفه فناءً بيولوجيا يطال الكيان العضوي، بل كتحول أنطولوجي أطاح بمركزية الذات التي توهمت السيادة على الوجود منذ فجر الحداثة، فما الإنسان، في ضوء التشريحات البنيوية الصارمة، إلا اختراع حديث ولد في ثنايا نظام معرفي معيّن، وما طبيعته التي ظنها أزلية إلا صورة واهنة رسمت على رمال الشاطئ، سرعان ما يمحوها مد التحولات المعرفية العاتية. هذا الإنمحاء ليس إلا تكملة لصرخة نيتشه عن "موت الإله"؛ فبمجرد فُصمة العروة الميتافيزيقية التي كانت تشد الكائن إلى المبدأ الميتافيزيقي، تهاوت وحدة الذات واستحالت شتاتا من الموضوعات التي تتقاسمها العلوم الإنسانية، حيث غدا الإنسان مصلوبًا بين حتميات الحياة في البيولوجيا وإكراهات العمل في الاقتصاد، وقيود اللغة في اللسانيات. هاهنا، لم يعد الإنسان هو الذات التي تنطق بالمعنى، بل أضحت اللغة بنسقها المستقل هي التي تتحدث عبره، حيث تكشف عن فراغ أنطولوجي يسكن تلك القوقعة التي ادعت يومًا أنها مقياس كل شيء.

تتفاقم مأساة الإنمحاء عبر "آليات العقل الأداتي" التي حولت الكائن البشري من غاية في ذاته إلى مجرد أداة في المنظومة التقنية، وهو ما جسده هربرت ماركيوز في مقولة "الإنسان ذو البعد الواحد" الذي استلب لصالح قوى الاستهلاك. وترويض الإنسان وتحويله إلى جسد طيّع تخضعه السلطة لآليات المراقبة والمعاقبة في السجون والمستشفيات قد أفرغته من حريته وذاتيته. وجعلته نتاجا لاستراتيجيات الهيمنة وتشييء العلاقات الإنسانية. أمام هذا التشييء الكلي الذي أفرغ الإنسان من كل أبعاده المتعالية، تبرز التساؤلات:

- أي مصير ينتظر هذا الكائن الذي أعدمه الفكر الفلسفي بعد أن تآله برهة من الزمان؟
- هل يمكن لهذا الكائن الذي أضحى بنية جوفاء تحت وطأة التقنية والسلطة أن يستعيد كينونته الأصيلة؟

2- رونيه غينون واستعادة الإنسان في التراثيات الشرقية:

أخفقت الفلسفة والعقل في العصر الحديث في الإمساك بحقيقة الانسان، فبدلا أن تمنحه الحياة وتؤطر وجوده في سياق كوني كلي، انتهت إلى إماتته روحيًا حين حبسته في أطر مادية وتقنية ضيقة، حيث ألقت به في غياهب الكوجيطو الجريح الذي انشطر عن كليته وفقد مراتبه الوجودية، فصار غريبًا عن طبيعته وعن المبدأ الذي صدر عنه. من هذا المنطلق أدرك غينون أن أزمة العالم الحديث ليس خلل عرضيًا، بل انقطاع جذري عن التراث وعن الميتافيزيقا الخالصة، مما دفعه إلى البحث عن البديل في الشرق، بوصفه الأفق الروحي الذي لم تتلوث ينابعه بالنزعات الفردية والمادية، سعيًا وراء استعادة المبدأ الميتافيزيقي المفقود الذي يربط الكائن بأصله الأنطولوجي، ويعيد للإنسان بريقه وحضوره في الوجود، والإتصال بالديمومة الروحيّة.

يمضي غينون في سبيل هذا التحقق الروحي في استنطاق التراث الهندوسي، وبخاصة الفيدانتا بوصفها ميتافيزيقا خالصة[1]، حيث يتجلى الإنسان في أسمى مراتب تحققه عبر "اليوغي" الذي يجسد الهوية العليا والإتصال بالمبدأ الميتافيزيقي، متجاوزًا ثنائية الذات والموضوع ليصبح مرآة تنعكس فيها الحقائق الإلهية، وهو ما يمثل ذروة التحقق المعرفي الحدسي الذي يقهر الاغتراب الأنطولوجي. لا يقف غينون عند هذا الحد، بل يتقصى الحكمة الطاوية كميتافيزيقا خالصة تتعالى على التحديدات الصورية،

[1] -انتقد رونيه غينون اختزال الفيدانتا في مجرد نسق فلسفي، حيث اعتبره قراءة استشراقية خارجية تسقط مفاهيم الحداثة الغربية على تراث روحي. فالفيدانتا "ميتافيزيقا شرقية خالصة" تتجاوز القوالب البشرية "تراث فوق-بشري (العلم المقدس)" أنظر الباب الأول "عموميات حول الفيدانتا" من كتاب الإنسان وصيرورته بحسب تعاليم الفيدانتا.
-"L'HOMME ET SON DEVENIR SELON LE VÊDÂNTA ».

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

حيث يحضر الإنسان المتعالي "شين-جين" الذي يتناغم مع الطاو في حركة سرمدية لا تعرف السكون، محققا وحدة الوجود في كينونته الخاصة، ليغدو المركز أو "المحرك الذي لا يتحرك" والذي تدور حوله عجلة الوجود.

تصل الرحلة الميتافيزيقية ذروتها في رحاب الباطنية الإسلامية (اللّب)[1]، لاسيما عند الشيخ الأكبر ابن عربي والجيلي، حيث تبلور "الإنسان الكامل" بوصفه البرزخ الجامع بين الحق والخلق، والنسخة الكونية التي انطوى فيها الكون الأكبر. إن الإنسان الكامل ليس مجرد كائن طبيعي، بل هو التجلي الأتم للمبدأ الميتافيزيقي، والوسيط الذي يتحقق به الغرض من الإيجاد.

أ- اليوغي في التراث الهندوسي:

تقوم الميتافيزيقا الهندوسيّة، لاسيما الفيدانتا، على مبدأ أن الوجود واحد في حقيقته، متعدد في مراتبه. ولا يناقض هذا التعدد الوحدة، بل يتجلى عنها على نحو تراتبي. فالعوالم أو مراتب الوجود ليست أمكنة منفصلة ولا أقاليم جغرافية[2]، بل هي مراتب للوجود من اللامتجلي إلى المتجلي، وهو تمييز لا يرمي إلى إثبات الثنائية، بقدر ما يكشف النقاب عن كيفيّة انبثاق الكثرة من الوحدة اللامتناهية التي يمثلها "البراهمان". فهو المبدأ الميتافيزيقي الكامن ليس مجرد علة أولى، بل الوجود الحق، الذي تنطوي تحت عباءته كل الإمكانات الوجودية؛ حيث يمثل اللامتجلي المبدأ الميتافيزيقي الذي يسبق كل تشخص، في حين يمتد المتجلي ليشمل كافة مراتب الإمكان، مترابطًا في وحدة عضوية تجعل الوجود كله فيضًا عن ذلك المبدأ الميتافيزيقي الذي لا تدركه الأبصار ولا يحده الفكر المتناهي.

ينتظم العالم المتجلّي في مراتب، حيث يمكن التمييز بين مرتبتين: مرتبة التجلي غير الصوري (غير المشكل)، ويظل مندرجًا في الإمكانية الكليّة فوق-فردية، إذ لم تبلغ الكثرة حد انفصال الشكل، وبين مرتبة التجلي الصوري، وهي المرتبة التي تتحدد فيها الفردية المقيّدة والمشروطة. في عمق التجلّي الصوري، نلفي تمييزًا بين مرتبة التجلّي الصوري اللطيف، التي تشتمل على القوى النفسيّة والمبادئ الحيوية التي تحرك الكائن من باطنه، وبين مرتبة التجلي الصوري الكثيف الذي تتجسد في العالم المادي المحسوس. هذا التدرج من اللطيف إلى الكثيف، هو تدرج في كيفيات الوجود ودرجات الكثافة الأنطولوجيّة، حيث يظل المبدأ الميتافيزيقي حاضرًا في كل مرتبة بمقدار ما تسمح به شروطها وطابعها الخاص.

يتحدد موقع الإنسان ضمن هذه التراتبية بوصفه بؤرة أنطولوجية، تتجاوز حدود مرتبة واحدة لتغدو نقطة التقاطع المركزية التي تلتقي عنها سائر مراتب الوجود. يكمن فيها الكثيف بآليته المادية، واللطيف بأغواره النفسية، واللامتجلي بإمكاناته الروحية المتعالية؛ ومن هنا تنبثق إمكانية العروج الوجودي، حيث يستطيع الكائن، من خلال التحقق المعرفي والاستبصار الميتافيزيقي، أن يتسامى من مرتبة التجلّي الصوري الكثيف إلى آفاق التجلّي اللطيف، وصولا إلى الإتصال باللامتجلي. لا يمثل هذا العروج الروحي انتقالا مكانيًا، بل تحقق معرفي تربوي واسترجاع للهوية العليا التي تعرف في نهاية المطاف أن الكثرة الهائلة والمراتب المتباينة لم تكن إلا تجليات للواحد الأحد، لم يزدها التعدد والكثرة إلا رسوخًا في الوحدانية المطلقة.

تبدأ مراتب عروج الكائن في الفيدانتا من مرتبة اليقظة Vaishwânara[3] التي تمثل المرتبة الأولى من تجلي آتما Ātman "الذات" في صورة جيفاتما Jîvâtmâ"الأنا"، حيث يتموضع الوعي في العالم الحسّي ويباشر إدراك الموجودات الخارجيّة في عالم

[1] - René Guenon, **Aperçus sur l'ésotérisme islamique et le Taoïsme**, Editions, GALLIMARD 1973,p29.

[2] -René Guénon, **MELANGES**, p11.

[3] - René Guénon, **L'HOMME ET SON DEVENIR SELON LE VÊDÂNTA**, p55.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

التجربة الحسيّة الكثيفة. هذه المرتبة، رغم كونها أدنى المراتب التحقق من حيث الكثافة المادية، تمثل نقطة الارتكاز الضرورية التي تنطلق منها الذات في عروجها الروحي؛ فيها تتركز القوى الإدراكية التي تسمح للكائن بالوعي بذاته كوجود متميز قبل الشروع في تذويب الثنائيات في المراتب العليا. تتجلى فاعلية الكائن عبر "تسع عشر فما أو مدخلا معرفيا، تمثل الأدوات التي يتم من خلالها إدراك العالم الخارجي، وهي لا تعدو أن تكون انعكاسات للقوى الكونية التي توحد بين "الكون الأصغر" الإنسان و"الكون الأكبر" الكون.

تتجلى قوى الفعل بوصفها ميكانيزمات وجودية تتجاوز الوظائف العضوية لتربط الكائن بالمحيط الكوني عبر الغلاف الحيوي prânamaya-kosha[1]، وهي تنتظم في الأفعال أو الوظائف الخمس (Vâyus) تعكس تراتبا لفاعلية الذات؛ تبدأ ب(prâna) الذي يمثل حركة الشهيق، كجذب الهواء الكوني لتمكينه من الحلول في الوعي الفردي، ثم (apâna) كحركة زفير تدمج العناصر في الفردية، يليها (vyâna) التي تتجلى في الحركات الحيوية والتبادلية كالدورة الدموية، ثم (udâna) الروح وتجاوز الفردية المحدودة نحو إمكاناتها الكلية، وانتهاء ب (samâna)[2] الذي يحقق الاستيعاب للعناصر الممتصة عبر التمثيل الغذائي؛ فهذه الأنفاس هي التي تحيل الغلاف الحيوي من مادة صلبة مكونة من العناصر الخمسة (الأرض، الماء، النار، والهواء، والأثير) إلى كيان حيّ متفاعل، حيث تصبح العناصر الأرضية لحمًا، والمائية دمًا، والنارية جهازًا عصبيًا، في تكامل تام يربط الكون الأصغر البشري بالكون الأكبر الطبيعي.

أما قوى الإدراكات، فتمثل الملكات التي تربط الذات بالموضوع عبر الغلاف المعرفي، حيث الحواس أفواه تقتات على موضوعات التجلّي، ويظهر الترابط بين الحواس والمبادئ الكونية، فالأذنان "حاسة السمع" ترتبط بالجهات الأربع للفضاء من حيث هي وعاء الصوت وتردد الصدى الكوني، ثم العينان "حاسة البصر" ترتبط بالمبادئ النورانية المتمثلة في الشمس والقمر، بينما وظيفة الرئتين بالجو كمصدر للهواء "التنفس" الكوني، والفم يرتبط بالمبدأ الإغني الناري المحول للعناصر. تعمل هذه الملكات الإدراكية على نقل المدركات الخارجية إلى العقل الفردي "ماناس" الذي يقوم بتشكيلها، لتكون بذلك القنوات المعرفية التي تسمح ل "آتما" في مرتبة اليقظة بالتعرف على العالم الجسماني الكثيف، وهي خطوة ضرورة في سلم العروج الروحي، إذ من خلالها يتم إدراك المظاهر الخارجية وتوجيهها نحو المركز، ليبدأ الكائن بالتحرر من الأغلفة الكثيفة نحو وحدة الوجود.

يرتقي آتما من مرتبة اليقظة، حيث يتقيّد بالمادة وكثافة الأجسام، إلى رحاب مرتبة النوم Taijasa[3] وتمثل البرزخ الوسيط بين الكثافة الجسمانية وتجلي العالم الروحي اللطيف. وتسمى الذات في هذه المرتبة تيجاس العنصر الناري[4]. تتحرر جيفاتما من قيود الزمان والمكان، لتلج عالم الشكل اللطيف النفس، حيث ترتد إلى باطنها المستنير بنورها الباطن، ليغدو ماناس "العقل الفردي" أو الحس الباطن هو المركز والمحيط في نفس الآن.

يمتص ماناس في باطنه كل قوى الحس والفعل، ليعيد صياغتها في قوالب صورية لطيفة لا تدركها الأبصار بل تبصرها البصيرة الفردية. تتصل هذه المرتبة ب (Nâdîs) أو القنوات اللطيفة التي لا ينبغي الخلط بينها وبين الأعصاب الفيزيولوجية، بل هي مسارات للطيف الحيوي (Prâna) في تجليه السائل والمنير، حيث ينساب الوعي انسياب الحرارة في المادة.

---

[1] - René Guénon, L'HOMME ET SON DEVENIR SELON LE VÊDÂNTA,p90.
[2] - René Guénon, L'HOMME ET SON DEVENIR SELON LE VÊDÂNTA, p90-91.
[3] - René Guénon, L'HOMME ET SON DEVENIR SELON LE VÊDÂNTA, p111.
[4] - René Guénon, L'HOMME ET SON DEVENIR SELON LE VÊDÂNTA, p111.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

تتجلى علاقة تايجاس بالقوى النفسية في قدرة الروح على ابداع عالم كامل من الصور يحاكي العالم الخارجي في الصورة (Rûpa) لكنها تفارقها المادة، مما يجعل تايجاس برزخًا معرفيًا بين مرتبة الوجود المادي الكثيف ومرتبة اللامتجلي الروحي. هنا يتحول الفرد إلى صانع لعالمه، إذ يستمد من مخزون (Ahankâra)، أي الوعي الفردي –مادة تصوراته– ليصوغ منها حقائق شفافة، تعد تمهيداً للإرتقاء اللاحق نحو اللامتجلي حيث ينمحي التمييز وتتلاشى الصور.

ينطوي الارتقاء من مرتبة اليقظة إلى مرتبة النوم على استبطان عميق، حيث يرتد الكائن من الخارج المشتت إلى الداخل المتجانس، مستبدلا ضوء الشمس الخارجي بضياء تايجاس الباطني. يظل التحقق المعرفي في هذه المرتبة محصوراً في دائرة الفردية، حيث الصور المشاهدة في الحلم، رغم كونها لطيفة، لا تزال تحمل سمات الصورة والشكل، وهو ما يجعلها مرتبطة ب "ماناس". مع ذلك، فإن هذه المرتبة تمنح الروح إمكانية التحرر من كثافة المادي، وتسمح باستشراف المبادئ العلوية من خلال الرموز والصور المنطبعة في مرآة النفس. يمتزج في هذه المرتبة الوجود بالمعرفة، حيث يكون الحالم هو خالق موضوعات حلمه، والفاعل والمنفعل في آن واحد، غير أن هذه المرتبة رغم شفافيتها تظل مشروطة بالثنائية "الرائي" و"المرئي"، ولا تزال الصورة تحجب الحقيقة المحضة لذات آتما، فحضورها هو تخيّل خلاق دون أن تظفر الذات بوحدتها المفقودة.

يصل العروج إلى مرتبة "براجنا"[1]Prâjna"[2]، وهي المرتبة التي تعكس ميتافيزيقيًا النوم العميق، حيث يتجاوز الكائن حدود التشخص والتمييز الصوري ليحل في وحدة لا تعرف الإنقسام. ليست هذه المرتبة غيابًا للوعي كما يروج في علم النفس الغربي[3]، بل هي استغراق في الروح ذاتها، حيث تستحيل الكثرة إلى وحدة تركيبية بسيطة، وينكشف آتما بوصفه المعرفة الكليّة (Prajnâna ghana)، منزهة عن ثنائية الذات والموضوع. في هذه المرتبة، يتحرر الكائن من رغبات اليقظة وخيالات الأحلام، ليرتقي إلى السعادة Ânanda، وهي سعادة وجوديّة تنبع من امتلاء الذات بإمكاناتها الكليّة، حيث لا يعود ثمة فصل بين الوعي وموضوعه، بل الوعي عين الوجود، والوجود هو عين السعادة الصرفة.

يتحقق الإتصال المعرفي في هذه المرتبة عبر ملكات تتخطى الفكر الإستدلالي والذهن المنعكس، إذ أن التحقق المعرفي هو الوعي الكلّي "شيت"[4] الذي يعانق الحقيقة دون وسيط أو صور أو ألفاظ. إن الأداة المعرفية في براجنا ليس العقل الجزئي المنشغل بالجزئيات، بل الاستبصار أو "الحدس العقلي" (Buddhi) فوق–فردي، حيث تشرق الأنوار الإلهية على الروح. من هنا، فإن التحقق المعرفي يقتضي انصهار الذات العارفة في موضوع المعرفة، مما يجعل المعرفة فعلاً وجوديّا كليّا يحيط بالمبادئ الميتافيزيقية قبل تنزلها في عالم الأسماء والصور والأشكال.

أما صورة التحقق في هذه المرتبة، فهي تتجلى في كون براجنا هو ذاته (Îshwara)، أي الرب أو المبدأ الميتافيزيقي الذي يهيمن على كافة مراتب الوجود. لا يفقد الكائن في هذه المرتبة لإمكاناته الصورية، بل يستبقيها في حالتها المبدئية؛ فالأشياء لا تنعدم، لأنه لو انعدمت هذه الإمكانات فعليًا في مرتبة براجنا، لما أمكن العودة منها إلى مراتب الظهور والتجلّي. فالكائن الذي

---

[1] –تعني مرتبة العارف الذي تجاوز كل شرط معرفي خاص، حيث لا يعرف بواسطة ملكة أو إدراكات جزئية محدودة، بل يعرف بذاته وفي ذاته.

[2]– René Guénon, L'HOMME ET SON DEVENIR SELON LE VÊDÂNTA,p65.

[3] – نموذج وليم جيمس في كتابه «THE VARIETIES OF RELIGIOUS EXPERIENCE"، الذي اعتبر المراتب الوجدانية العليا، تقبع في النطاق السيكولوجي الصرف، حيث اعتبرها تجليات لوظائف عصبية أو حالات ذهنية ذات فاعلية براغماتية دون أن يدرك طبيعتها فوق–فردية.

[4] –تتقاطع شيت في الرمزية مع ابن آدام باعتباره استعادة "للحالة الفطرية الأصيلة". أنظر رمزية شيت "كتاب رموز العلم المقدس " لرونيه غينون.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

بلغ مرتبة النوم العميق، يستطيع أن يعود إلى مرتبتي الحلم واليقظة، مما يدل على أن العالم المتجلي لن يفن بل يبقى كامنًا في الأصل اللامتجلّي. ما يعني أن براجنا ليست نفيًا للتجلّي، بل هي أساسه الثابت والمركز الذي تدور حوله جميع مراتب الوجود.

تقع هذه المرتبة عند التخوم بين التجلّي واللاتجلّي، حيث تتضمن في آن وحدة الوجود وأول تجلياته المبدئية؛ فهي تشمل القطبين الكونيين للتجلّي بروشا وبراكريتي في مرتبتهما اللامتجليّة، وكذلك المراتب فوق-فردية التي لم تتنزل بعد إلى دائرة الصور. إلا أن هذه المرتبة، رغم علوها، تبقى في دائرة الوجود وليس المطلق بذاته، فهي الوجود الخالص وليس ما وراء الوجود.

يصل عروج آتما إلى أعلى مراتبه حينما ينخلع الموت عن صفته المادية بوصفه انحلال عضويًا أو فناءً عدميًا، ليصبح صيرورة ميتافيزيقية واعية تنشد ارتداد المراتب الفردية إلى مبادئها الأصلية؛ فالموت ليس انقطاعًا وجوديًا باتًا، إنما هو خروج من الشكل الجسدي الكثيف غير أن الشكل اللطيف من المرتبة الفردية ما يزال حاضرًا[1]، حيث تنتقل الروح إلى الشريان التاجي L'artère coronale وتنفذ إلى براهما في تاج الرأس، سالكةً الرحلة الإلهية إلى الإنعتاق النهائي Moksha انقباض الوحدة الميتافيزيقية، حيث لا عودة إلى دولاب الولادات؛ أما الأرواح التي لم تتحقق معرفيًا، فإنها تسلك طريق الأسلاف لتعود مجددًا عبر دورات كونية لتستكمل ما نقص من تحققها[2].

توضح النصوص الهندوسية مثل الأوبانيشاد، أن الذين يسلكون طريق الألهة (dêva-yâna)[3] يغادرون المرتبة المادية لتبدأ رحلتهم عبر عناصر كونية رمزية: من مملكة النار "تيجاس" حاكمها "فايشوانارا"، مرورًا بمملكة الهواء وصولاً إلى الشمس، ثم الانتقال عبر مملكة الماء، وما بعد الأثير إلى مركز روحاني أعلى، الذي يمثل أصل الكون ومركزه المطلق. تفسر كل هذه المحطات باعتبارها مراتب وجودية تتوافق مع تطور الكائن خارج حدود المادة، تتجاوز الرموز الكونية (الشمس، القمر، العناصر) الأشكال المادية لتصبح المبادئ المختلفة للوجود.

أما في الطريق الرمزي الأسلاف، (pitri-yâna) لا يتجاوز الكائن مرتبة القمر، حيث تنحل الصور القديمة لتفسح المجال لظهور صور وأشكال جديدة، لكنه يظل مقيّدا بشروط الفردانية، أي لا يحقق الانعتاق النهائي، بل يخضع لدورات جديدة من التجلّي الفرداني. أما طريق الألهة يفضي بالكائن إلى ما يعرف "بالخلود بالقوة"، أي التحرر من مرتبة الأشكال والصور دون الوصول إلى مرتبة المبدأ اللامتناهي.

يتجلى انعتاق الكائن المتحرر بوصفه تحقّقا فعليًا بالهوية العليا التي تتجاوز كل انحصار في مرتبة الفردية وقيودها. فهو ليس انتقالا عرضيًا بين مراتب الوجود، بل استغراق في اللامتجلي المطلق. إن التمييز بين الإنعتاق المفارق للصورة الجسدية (vidêha-mukti)، بعد الموت والانعتاق المتحقق في الحياة الأرضية (jîvan-mukti)[4] لا يمس الحقيقة الوجودية، بل يرتد إلى زاوية النظر المرتبطة بالتعيين الجسدي؛ فالمعرفة في مآلها لا تتمايز إلا بكونها إمكانًا يكتمل بانقضاء الوجود الصوري، أو فعلا يحقق

---

[1] - René Guénon, L'HOMME ET SON DEVENIR SELON LE VÊDÂNTA، p153.

[2] -ينقد رونيه غينون "نظرية التناسخ" باعتبارها اختراع بعض الغربيين المحدثين "هيلين بلافاتسكي في القرن 19". وتحمل خلطا بين المراتب الوجودية والصورة المادية، إذ يقر باستحالة عودة الكائن إلى نفس المرتبة الوجودية التي استنفدت كل إمكاناتها الوجودية في دورة سابقة. تقتضي الميتافيزيقا أن الوجود سيلان مستمر من التحقق الذي لا يقبل التكرار، مما يجعل القول بعودة الروح إلى جسد أرضي آخر مناقضا للمبدأ الميتافيزيقي للوجود. أنظر الباب العشرون "الرحلة الإلهية" من كتاب الانسان وصيرورته في تعاليم الفيدانتا. وكتاب ظلال الروحنة.

[3] - René Guénon, L'HOMME ET SON DEVENIR SELON LE VÊDÂNTA, p94.

[4]- René Guénon, L'HOMME ET SON DEVENIR SELON LE VÊDÂNTA, p108.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

"الهوية العليا" في آنية التجلي. يقوم هذا التحقق على مبدأ أن الكثافة الجسدية لا تقف حاجزًا دون اللطيف المطلق والكليّ الذي لا يحده ضد ولا يحصره مقابل، من تم تتلاشى الفوارق بين ثنائية الحياة والموت أمام الوحدة الميتافيزيقية.

يختلف الانعتاق جذريًا عن الخلاص اللاهوتي؛ إذ يظل الخلاص حبيس الثنائية الفعل والجزاء، رهينًا بالتقلبات الزمنية والمقاييس الأخلاقية، بينما يرتفع الإنعتاق (Moksha ou Mukti) إلى مرتبة التحقق المعرفي الذي لا يناله يد الكسب ولا يطاله قانون الفقدان، لكونها تتجاوز ثنائية الفاعل والمنفعل. يرفع هذا التمييز عن قصور التصورات الغربية التي تمنح مرتبة الفردية الجسدية مركزية وجودية زائفة، وتغفل عن تعدد مراتب الوجود التي لا يشغل مرتبة الوجود الفردية الكثيفة إلا حيزًا محدودًا وعرضيًا. فالانعتاق هو الوجه الآخر للتحقق، وهو المسار الذي يفضي إلى كمال الإنسان، حيث يستوعب المنعتق "اليوغي" Yogî في ذاته كل المراتب الممكنة، سواء ما ظهر منها في حيز التجلي أو ما بطن في كمون الإمكانية الكليّة، فيغدو سيّد المراتب الذي يشغل واحدة منها بظاهره، بينما يطوي باطنه حقيقة الوجود بأسره.

في هذه المرتبة، تشرق شمس المعرفة في سماء القلب[1] لتبدد غياهب الجهل (Avidyâ)، وتكشف أن كل ما سكن إليه بوصفه وجودًا مستقلاً ليس إلا وهم وسراب. فآتما لا تلحقه صفة المقيّد ولا فعل محدث، بل هو السعادة التي يطلب بعدها مأرب والمعرفة التي لا ينشد ورائها غاية. إن تحقق اليوغي "الإنسان المنعتق" أو الكامل يمثل الإنمحاء التام لكل الثنائيات، بحيث لا يضيف الإنعتاق للكائن شيئًا لم يكن فيه، بل مجرد جلاء للصدأ عن مرآة الذات، ليتجلى ما كان هو إياه أزلا في عمقه الأصلي، بلا زمان ولا مكان ولا حجاب.

ب–شين–جين في الطاوية:

يتجلى الإنسان في الميتافيزيقا الطاوية، عبر معادلة أنطولوجية كبرى التي تحدد ماهيته بوصفه "ابن السماء، وأمه الأرض"[2]؛ وهي صيغة لا تقف عند الاستعارة الشعرية، بل تحدد الانسان كبرزخ وجودي تلتقي فيه فاعلية السماء المبدأ الفاعل "اليانغ" مع انفعالية الأرض المادة الأولى "الهيولى" أو المبدأ المنفعل "الين". ليس الإنسان في حقيقته الميتافيزيقية مجرد كائن بيولوجي، بل الحد الأوسط في الثلاثية العظمى "السماء، الإنسان، الأرض"، إذ هو الكائن الذي تتكافأ فيه قوى الوجود، الفعل والقوة، ككل متناسق. غير أن هذا التحديد يوجب التمييز بين "الإنسان العادي" و"الإنسان الحقيقي"؛ فالإنسان العادي ليس سوى مشروع إنسان لم يتحقق، كائن سقط في برانية الوجود وغلبت عليه الكثافة الأرضية، فظل إمكانية لم تخرج إلى الفعل التام، غارقًا في التعدد والكثرة، منفصلاً عن المركز، وبالتالي فهو ابن الأرض أكثر منه ابنًا لسماء، محكوم بالمبدأ الين الذي يجعل منه مجرد رقم في دوامة الصيرورة.

أما على الضفة الأخرى من هذا الوجود الزائف، ينتصب الإنسان الحقيقي؛ إنه الكائن الذي استطاع استعادة "الوضع الأصلي"[3] أو الإنسان الفردوسي إن صح التعبير، حيث يستعيد موقعه في مركز الكون. فصيرورة الإنسان أو مصيره الحقيقي،

---

[1] –ويتجلى هذا المعنى بأبهى صوره في بيت ابن عربي الشهير من "ترجمان الأشواق":
–لقد صارَ قلبي قابلاً كلَّ صورةٍ ... فَمَرْعًى لِغِزْلانٍ ودَيْرٌ لِرُهْبَانِ
وبَيْتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائــفٍ ... وألواحُ توراةٍ ومُصْحَفُ قُرآنِ

[2] – RENÉ GUÉNON, La Grande Triade, Éditions Gallimard, 1957, p80.

[3] –شيث Sheth (ابن آدام)، الذي يمثل في إحدى دلالته استعادة الوضع الأصلي "الفردوس المفقود" العــودة إلى الجنــة. (أنظــر كتــاب رموز العلم المقدس، رونيه غينون، المقالة 20).

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

هي رحلة استعادة هذه الفطرة الأصلية[1] التي طمستها غشاوة السقوط في المادة الكثيفة، حيث تساوت فيه كفتا الوجود: الجوهر والهيولى، الظاهر والباطن، فأصبح "يانغ" بالنسبة للكون، أي فاعلاً فيه بفضل هيمنة التأثيرات السماوية على تكوينه. يتطلب هذا الترقي الوجودي والمعرفي عبوراً من المحيط (الكثرة/ الظهور) إلى المركز (الوحدة/ البطون)، وهو ما يعادل في الباطنية الصوفية الأسرار الصغرى[2]؛ أي استكمال الإنسانية في تمامها، والتموضع في الوسط الثابت الذي لا يتزعزع، حيث يغدو الإنسان مرآة تنعكس عليها الأنوار العلوية، محاكيًا السماء الفاعل الصامت، إنه "الطاو" أو الطريق نحو المبدأ في تراث الشرق الأقصى.

في معارج الترقي الروحي، يتجلى الفرق بين "الإنسان الحقيقي" L'homme véritable و"الإنسان المتعالي"l'homme transcendant[3]، فبينما يمثل الإنسان الحقيقي استعادة للوضع الأصلي أو الفطرة الأصلية عبر التمركز في الوسط الثابت للحالة البشرية، حيث تجتمع كافة الإمكانات الفردية وتنتفي عنه التناقضات الظاهرية، يمثل الإنسان المتعالي خروجا كليّا عن قيود المرتبة الفردية وتجاوز للمراتب الإنسانية برمتها، إذ هو المتحقق بالإنسان الكامل الذي لا يكتفي بمركز الدائرة الأرضية، بل يتماهى بالمحور العمودي الرابط بين مراتب الوجود، محققا "الهوية العليا" التي تتخطى ثنائيات الوجود المشروط والمقيّد.

تتبدى على هذه التراتبية الوجودية تراتبية معرفية "التحقق" وتراتبية تربوية روحية "التخلق"؛ فمعرفة الإنسان الحقيقي هي ذروة الأسرار الصغرى، وهي معرفة تكاملية تعيد النظام إلى الفوضى الداخلية وتجعل من العارف عالما بالقوانين الكونية، فيكون فعله بمثابة السكون المحرك للأشياء من مركزها، إلا أن هذا المقام يظل محصوراً في مراتب الفردية، حيث العارف أمه الأرض الذي استعاد فردوسه المفقود دون أن يغادر "عجلة الكون"؛ أما الإنسان المتعالي، فإن معرفته عين الأسرار الكبرى[4]، وهي معرفة لا تتناول القوانين فحسب، بل تتصل بالمبدأ الميتافيزيقي ذاته، حيث تتجاوز حدود الزمان والمكان والسببية، ليكون بذلك "ابن السماء" الذي نفذ من أقطار السماوات والأرض، وأصبح الجسر والقطب الذي تدور حوله العجلة أو "المحرك الذي يحرك ولا يتحرك."

---

[1] -الآية 30 من سورة الروم هي" :فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ".

[2] -تمثل الأسرار الصغرى المرحلة التحضيرية في مسار التحقق، حيث تشمل تطوير إمكانات المرتبة الإنسانية في كليتها، وصولاً إلى ما يسمى باستعادة "الوضع الأصلي" أو الإنسان الكامل. تتطلب هذه المرتبة تحققًا أفقيًا يرمز إليه بالأرض، إذ يسعى السالك إلى بلوغ مركز الفردية الإنسانية، نقطة التكامل التي يصبح فيها الكائن الإنسان الحقيقي الذي استعاد وعيه الكامل بإمكاناته قبل التمايز الوظيفي. ترتبط بالوظيفة الملكية والكشاطرية، حيث يعد إتمامها شرطا للانتقال إلى المرتبة العليا. (الشيخ عبد الواحد يحيي، نظرات في التربية الروحية، ترجمة عبد الباقي مفتاح، ص239).

[3] - RENÉ GUÉNON, La Grande Triade,p 140.

[4] - تتجاوز الأسرار الكبرى الحد الإنساني لتحقق المراتب فوق-الفردية عبر صعود عمودي يرمز إليه بالسماوات. يقود هذا المسار الإنسان المتعالي عبر المراتب المشروطة وصولاً إلى المراتب اللامشروطة، فهي الهوية العليا والانعتاق النهائي. تختص هذه الأسرار بالمعرفة الميتافيزيقية الخالصة التي تتجاوز الطبيعة، وترتبط بالسلطة الروحيّة وتمثلها في التراث الهندوسي مرتبة البراهما. (الشيخ عبد الواحد يحيي، نظرات في التربية الروحية، ترجمة عبد الباقي مفتاح، ص239).

تعتبر الأسرار الصغرى أساسًا ضروريًا للأسرار الكبرى، كما أن الفردوس الأرضي محطة على طريق الفردوس السماوي، كما يستمد الحكم الزمني شرعيته من السلطة الروحية، إذ تستمد الأسرار الصغرى مبدأها من الأسرار الكبرى.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

يبدو أن العلاقة بين مرتبتي "الإنسان الحقيقي" و"الإنسان المتعالي" ليست انقطاعًا بقدر ما هي تداخل في الظهور والبطون في الحقيقة، حين ينزل الإنسان المتعالي إلى العالم البشري فلا يدرك في عليائه المطلق، بل يتجلى في صورة الإنسان الحقيقي؛ لأن ما فوق–فردي لا يمكن أن يترك أثرًا في مرتبة الظهور إلا عبر الوسيط الكمال البشري، فتكون مرتبة الإنسان الحقيقي بمثابة الأثر أو التجلي المنظور لمرتبة الإنسان المتعالي المحتجبة في إطلاقها، وهو ما يجعل الإنسان الحقيقي مركزًا للإنسانية، أما الإنسان المتعالي[1] فيكون محورًا للوجود في كلّيته.

ج–الإنسان الكامل في الباطنية الإسلامية:

لا ينظر في الباطنية الإسلامية للإنسان الكامل بوصفه كائنا بيولوجيًا محضًا، بل هو النسخة الجامعة والمختصر الشريف للحقائق الإلهية والكونية معًا. فهو مرآة الوجود التي تنعكس فيها الحضرات الإلهية بتمامها، محققًا التناسب بين العالم الكبير والعالم الصغير".[2] هذا التناسب ليس كميًا للأعراض، بل تحقق كشفي للعوالم الأربعة التي سطّرها الشيخ الأكبر في خواتيم الباب السادس من الفتوحات المكية: "العالم الأعلى هو عالم البقاء، ثم عالم الاستحالة وهو عالم الفناء، ثم عالم التعمير وهو عالم البقاء والفناء، ثم عالم النسب."[3]بهذا يغدو الإنسان الكامل الكلمة الفاصلة الجامعة لهذه المراتب، والوسيط الذي ينتظم به عقد الوجود.

يتصل هذا التحديد بمراتب الوجود المتعددة، حيث ينطوي الإنسان في لطيفها وكثيفها على اختلاف مراتبها، فهو الجسر الأنطولوجي الذي يعبر عليه الوجود من الغيب المطلق إلى الشهادة المقيّدة. يتقاطع هذا القول مع التراثيات الأصيلة، حيث يحضر في "آدام قدمون" أو الإنسان الأزلي في القبالة العبرية، و(تاو–تي–كينك) في تراث الشرق الأقصى[4]، مما يؤكد كونية الإنسان كوسيط برزخي يذيب التناقض الظاهر بين المطلق الإلهي والمقيّد الكوني، ويوحد بين الحق في البطون والخلق في الظهور.

تتجاوز رمزية الإنسان الكامل في الباطنية الإسلامية، خاصة عند الشيخ الأكبر الوصف الأنطولوجي لتصبح خريطة للتحقق الروحي الميتافيزيقي، حيث تتجسد هندسيًا في رمزية الصليب[5]. لا يمثل الصليب أيقونة تاريخية فحسب، بل نظام إحداثيات يمثل نقطة التقاطع بين الازل والأبد، إذ يغدو الإنسان الكامل نقطة مركزية تشع في كل الاتجاهات. يقوم هذا التعيين على مبدأ الهوية العليا، إذ لا يدرك الكائن ذاته كمونادا مغلقة[6] في مراتب أفقية، بل كبرزخ جامع يستوعب الأسماء الإلهية وحقائق الأكوان،

---

[1] –(cheun–jen) أو "الإنسان الإلهي" أو "الإنسان الروحي"، فكلها تعبر عن التحقق الكلي والهوية العليا. (الباب الثامن عشر "الانسان الحقيقي والانسان المتعالي من كتاب الثلاثية العظمى).

[2] – روني جينو، رموز الإنسان الكامل "أو رمزية تقاطع خط الإسراء الأفقي مع خط المعراج العمودي"، ص65.

[3] –الشيخ عبد الواحد يحيى (روني جينو)، مراتب الوجود المتعددة، ترجمة وتعليق عبد الباقي مفتاح وتقديم عبد الإله بن عرفة، عالم الكتب الحديث إربد–الأردن، الطبعة الأولى 2016، ص211.

[4] – روني جينو، رموز الإنسان الكامل "أو رمزية تقاطع خط الإسراء الأفقي مع خط المعراج العمودي"، ص68.

[5] – روني جينو، رموز الإنسان الكامل "أو رمزية تقاطع خط الإسراء الأفقي مع خط المعراج العمودي"، ص71

[6] –يصبح الفرد جوهر بسيط وغير قابل للتقسيم يشكل وحدة الوجود (غوتفريد فيلهلم لايبنيز).

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

محققا تطابقًا عدديا ومعنويًا مع الإسم الجامع "الله" (تقارب القيمة العددية آدام وحواء 66 وهي نفس القيمة العددية "الله")[1]، فيغدو الإنسان المتحقق أو الكامل كلمة إلهية[2] تختصر كل إمكانات التجلي.

تتحدد تراتبية الترقي الروحي الميتافيزيقي من المحور الأفقي في اتجاه المحور العمودي. ويمثل المحور الأفقي انبساط الكائن في المراتب الفردية بجميع مدلولاتها الجسمانية والنفسية نحو التوسع والانتشار والكثرة. أما المحور العمودي فيمثل الانقباض نحو المراتب فوق-فردية، حيث يرتبط الكائن بالمبادئ العليا، متجاوزًا العتمة التي تشده إلى الأسفل والجهل، ليرتقي نحو النور واليقين. ويشكل الإنتقال من الأفقي إلى العمودي تحولاً من "الانبساط الشاسع" إلى "المعراج الرافع"[3]، أي التحقق في العمق والارتفاع؛ حيث يمثل الارتقاء العمودي سلسلة مراتب أو مقامات لامتعيّنة التي تندمج في الوحدة التركيبية للإنسان الكامل، محولاً التجربة الإنسانية من مجرد انبساط في الوجود إلى عروج نحو المبدأ الميتافيزيقي اللامتناهي.

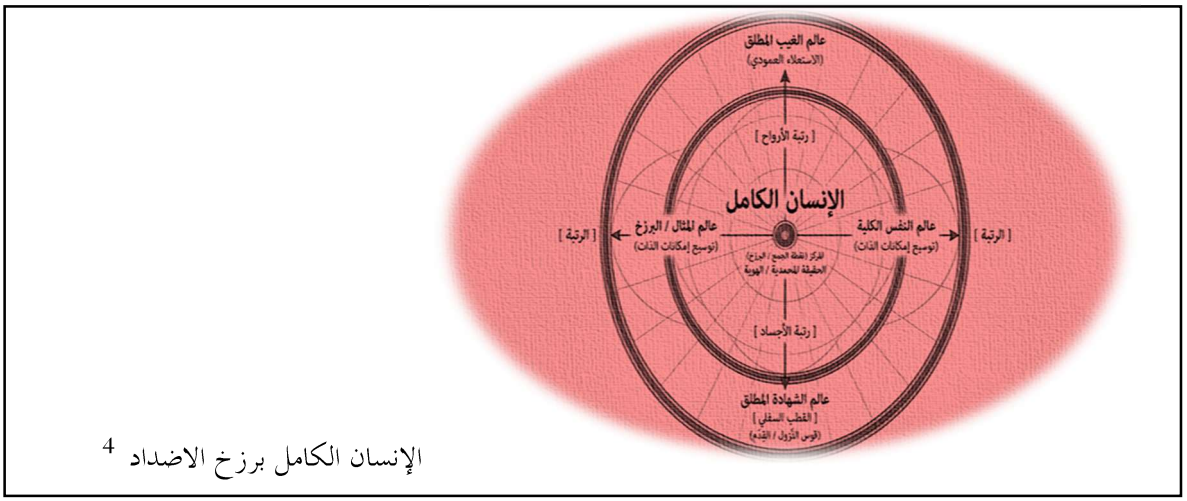

الإنسان الكامل برزخ الاضداد [4]

في عمق هذا التركيب الوجودي، تتفاعل عناصر متكاملة كأقطاب فاعلة ومنفعلة تحقق توازن كوني أصيل؛ حيث يمثل المحور العمودي المبدأ الفاعل[5] أو الفيض المبدئي الذي يمنح الوجود معناه، بينما يمثل المحور الأفقي القابلية الكونية أو مرآة الانعكاس التي تتلقى الفعل المبدئي وتصوغه في قوالب التجلّي. يرمز اتحاد هذين القطبين إلى الأندروجين الميتافيزيقي. ولا يفضي اتحادهما إلى صراع هيجلي بل إلى سكون انطولوجي، حيث تتلاشى الثنائيات: الذكر والأنثى، الفعل والانفعال في حالة من

---

[1] – رونيه جينو، رموز الإنسان الكامل "أو رمزية تقاطع خط الإسراء الأفقي مع خط المعراج العمودي"، ص76.

[2] –حديث القدسي هو: "وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ." صحيح البخاري.

[3] – رونيه جينو، رموز الإنسان الكامل "أو رمزية تقاطع خط الإسراء الأفقي مع خط المعراج العمودي"، ص71.

[4] – يؤكد عبد الكريم الجيلي أن الإنسان الكامل هو الكائن الجامع لكل الأضداد في وحدة متعالية وشهود كامل للوجود؛ فهو يجمع بين الحق والخلق (الربوبية والعبودية)، بين الوجود والعدم والقديم والحديث، وبين الظاهر والباطن والأول والآخر، كما يجمع بين النقص والكمال والوحدة والكثرة .إنه الكائن الذي يظهر الكثرة في الوحدة والوحدة في الكثرة، ويعكس الحقائق العليا بلطفها والحقائق السفلى بكثافتها، محققًا الوحدة بين التنزيه والتشبيه، فيصبح برزخًا جامعًا بين المراتب الإلهية والخلق، السماوية والأرضية، الروحية والمادية، ليكون في ذاته رمز الإنسان الكامل ومثال التحقق الوجودي المطلق في عالم الشهود (أنظر كتاب "الشرح الشامل لكتاب الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل"، الشيخ عبد الكريم الجيلي، الباب الرابع الألوهية من الصفحة146 –153.)

[5] – رونيه جينو، رموز الإنسان الكامل "أو رمزية تقاطع خط الإسراء الأفقي مع خط المعراج العمودي"، ص99.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

التوازن المطلق. يسمح هذا التكامل للكائن أن يكون صورة للكل، حيث تندمج القوى المتعارضة ظاهريًا في وحدة وظيفية تجعل الإنسان الكامل نقطة الارتكاز التي تدور حولها فلك التجليات دون أن تفقد ثباتها المبدئي.

يمر التحقق عبر صيرورة حل المتناقضات[1]ورد الأضداد إلى الوحدة المركزية، فما يبدو في عوالم التكثر كعناصر متنافرة: "النار، الهواء، الماء، التراب"[2] أو الثنائيات المتضادة: الحياة والموت، النور والظلم، ليست في الحقيقة إلا وهما ناتجًا عن الرؤية التمييزية المرتبطة بمحيط الدائرة الكونية. تذوب هذه المتناقضات والثنائيات في مقام الإنسان الكامل كنقطة مركزية ساكنة، هي النقطة التي تمثل الوسط المحايد حيث تنعدم المسافات وتنفى النهايات. تتحول القوى المتناقضة في هذا الحياد الميتافيزيقي إلى عناصر متألفة بفعل الفناء عن النزوعات الفردية ومعانقة الوحدة الميتافيزيقية، إذ يدرك الكائن أن التناقض عرض ناتج عن الاغتراب عن المركز، بينما البقاء في نقطة الصفر الميتافيزيقي تمنحه سلطة روحية تجعل الأضداد وجوهًا متكاملة لحقيقة واحدة لا تتجزأ[3]، بذلك ينجز الكائن وحدته المطلقة عبر اختزال الكثرة في وحدة شهودية.

خاتمة

يؤول النظر في المقاربة الميتافيزيقية إلى إدراك الهوة السحيقة بين مسارين للوجود؛ مسار النزعة الإنسانية الغربية التي تدرجت في الانحدار منذ أن قطعت وشائجها مع المبدأ الميتافيزيقي، ومسار التحقق الشرقي الذي يعيد بناء صرح الإنسان على أسس الكلية والوحدة. لقد أثبتت الحركة الإنسانية في الغرب، عبر تقلباتها، أنها لم تكن إلا استلابًا تدريجيًا للكائن؛ فبعد أن شيّدت بنيان الإنسان الحداثي المتعالي بعقله الأداتي والظافر بعتاده التقني، انتهى بها المطاف في الفكر المعاصر إلى إعلان موت الإنسان، حيث استحال إلى مجرد كيان مفتت محكوم بقوانين البيولوجيا والسياسة والاجتماع، فاقدًا وجوده وكونيته الروحية.

في مقابل الإنحدار الذي جعل الكائن الإنساني شيئًا بين الأشياء، ينهض البديل الميتافيزيقي الذي بسط رونيه غينون معالمه بوصفه استعادة أصيلة للحكمة الخالدة؛ ففي الميتافيزيقا الهندوسية، نجد اليوغي "الإنسان المنعتق" انبعاثا للكائن من ركام التشتت الفردي إلى رحاب "الهوية العليا" التي لا يحدها قيّد الجسد ولا حدود الموت. وفي التراث الطاوي، يتجلى الإنسان المتعالي "شين–جين" كمركز ثابت في قلب التحولات الكونية، محققا التحرر المطلق عن كل تجلّي عرضي. وتتوج هذه المقاربة في "الإنسان الكامل" ضمن العرفان الباطني الإسلامي، حيث لا يغدو الإنسان مشروعا لترميم الفردية، بل سعيا للظفر بالسلطة الروحية

---

[1] – روني جينو، رموز الإنسان الكامل "أو رمزية تقاطع خط الإسراء الأفقي مع خط المعراج العمودي"، ص107.

[2] – روني جينو، رموز الإنسان الكامل "أو رمزية تقاطع خط الإسراء الأفقي مع خط المعراج العمودي"، ص108.

[3] – بيّن ذو النون المصري أن الإنسان يجمع المتناقضات في وحدة وجودية. تتجاوز منطق الفصل والتعارض. فالمعرفة ليس فعل ذهني يخضع لقوانين عدم التناقض، بل مقام شهودي يتحقق فيه "الجمع بين الأغيار" بوصفه أفق التحقق الأقصى. لذلك يعرف العارف بعبارة دالة: "العارف ملوث الظاهر صافي الباطن"، في مقابل "الزاهد صافي الظاهر ملوث الباطن"، حيث أظهر قدرة الإنسان الكامل على استيعاب الثنائيات: (الظاهر/الباطن) (الجسد، النفس، والروح) (السماء، والأرض) في وحدة لا تقبل الانقسام.

تتعمق هذه الوحدة حين يصف الأولياء بأن: "أبدانهم دنيوية وقلوبهم سماوية"، حيث يجمعون بين كثافة الأرض ولطافة السماء في وحدة كونية.

كما يرتفع التعارض بين الذات والموضوع في قوله "عرفت ربي بربي، ولولا ربي لما عرفت ربي"، حيث تنحل ثنائية (الذات/الحق) في اشراق يرد التحقق المعرفي إلى مبدئه.

–Michael Ebstein, **Ḏū l-Nūn al-Miṣrī and Early Islamic Mysticism**, Arabica 61(2014).

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

والخلافة التي تجمع بين التحقق المعرفي والتربية الروحية، مما يقدم معنى جديدا للإنسان يتجاوز أفق التفكير العقلي الفلسفي نحو خطاب ما فوق–عقلي موجه للإنسانية قاطبة.

ببليوغرافيا

- Desiderius Erasmus, In Praise of Folly.
- ERNST CASSIRER, PAUL OSKAR KRISTELLER, JOHN HERMAN RANDALL, The Renaissance Philosophy of Man.
- GIOVANNI PICO DELLA MIRANDOLA, ORATION ON THE DIGNITY OF MAN.
- Gustav Davidson, A DICTIONARY OF Angeles "INCLUDING THE FALLEN ANGELS.
- Gibert Mathias, La Praxis Michel Henry: corps et esprit de la phénoménologie matérielle.
- Michael Ebstein, Ḏū l-Nūn al-Miṣrī and Early Islamic Mysticism.
- René Guenon, Aperçus sur l'ésotérisme islamique et le Taoïsme.
- René Guénon, L'HOMME ET SON DEVENIR SELON LE VÊDÂNTA.
- RENÉ GUÉNON, La Grande Triade.
- Jacob Burckhardt, The Civilization of the Renaissance in Italy.
- Charles Taylor, Sources of the Self: The Making of Modern Identity, Cambridge.
- الشيخ عبد الواحد يحي (رونيه غينون)، أزمة العالم الحديث.
- روني جينو، رموز الإنسان الكامل "أو رمزية تقاطع خط الإسراء الأفقي مع خط المعراج العمودي.
- الشيخ عبد الواحد يحيي، نظرات في التربية الروحية.
- الشيخ عبد الواحد يحي، رموز العلم المقدس.
- الشيخ عبد الواحد يحي (روني جينو)، مراتب الوجود المتعددة.
- الشيخ عبد الكريم الجيلي، الشرح الشامل لكتاب الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل".
- عبد الرزاق الدواي، موت الإنسان "في الخطاب الفلسفي المعاصر".

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/